

قوائد في العوائد

”كل امرء وما تعود“ حديثٌ سلت به البداعة وحكم ايدُهُ الاخبار ومعناه ان من تماكنت فيه عادة من العوائد ظهرت في خلال اعماله بلا تعهد ولا تكلف . والعادة في شرع المارفين ليست كالمخلوق لان الثاني يشترط فيه ان يكون غريزياً مخلوقاً في نفس الامر كما قال حان الانصاري عن قومه :

قوم اذا حاربوا خسروا عدوهم او حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثتهم ان الخلاق فاعلم شرها البدع
وذلك بخلاف المادة فانها تؤخذ بالممارسة والتكرار . اما المخلوق او التكلف فليس بخلق
لانه ليس طبيعياً موضوعاً في النظرة ولا بعادة لانه ليس مستمرّاً . قال الشاعر
فيه الكرامة خلق لا يزاله ليس المخلوق بالاخلاق كالمخلوق
ووجود مثل هذه الصفة في الناس دليل العجز والجن ولذا لا تعرض للبحث عنها

وقد قالت علماء الاخلاق ان المرء مجموع عادات ومعناه ان قيمة الانسان ومقدار نفسه يتوقفان على ما يديه من الحركات الاختيارية التي تظهر فيه بغير جهده او تكلف فان كانت حسنة وثق بها الآخرون واتبعوها وان كانت غير ذلك شجروها وهجروها

والعوائد المكتسبة اذا ثبتت في نفس الانسان وامتزجت بسفاته الباطنية وظهرت في كل حين منه بلا تشكك كان حكمها فيه حكم الغريزة وامكننا ان نطلق عليها لقب سجية او خلق . وقد يلتفت الانسان بعادة او سجية مضرة بغير ترقق تنطرق اليه من باب المعاشرة والتدور تصير ملكة فتسلط على اعضائه تسلط الرأس على البدن فيقع في حياض احواله ويحصل نتيجة تلافه . ولذا كان التروي من اوجب الامور واستعمال الحكمة من ازم الوسائط للعد من الوقوع في اشراك العوائد المضرة

لنتصور انساناً اُثِم بحكمه ان يجعل طوقاً من الحديد المطروق الثقيل حول رقبته او سلسلة حول معصمه وان لا يلقى عنه هذا الحمل ما دام حياً . فكم يصيبه من الالم والعذاب وكم يشق ويتهدد لانه لا يرى له مناصاً من هذا السجن الابدي ولا امل له بالنجاة من اوصاب هذا القيد المستمر ؟ هكذا يكون حكم العادة في الانسان فان سلطانها ليس باخف وطأة من هذا السلطان . فما اخرج هذا المسلك — مسلك اختيار المادات — ولا يخفى ان الانسان سهل الالتفاف بالعادات حتى قيل انها ”تجري اليد على زلق منحدر“ خصوصاً ما كان منها رديتاً لان

المراء يجذب بجائليها على ابعد مسافة وياقل الفواصل . نعم انه لا يتقاد اليها لاول وحلة الا انه مع ذلك ينبغي ان يكون على حذر منها لانها تقوى عليه بقانون الطبيعة شيئاً ثيباً حتى يعنو اليها صاغراً . فالليل الذي يستعمله الملاحون في جراعظم السفن ثقلاً مركب من خيوط رقيقة الى الناية والياف واهية جداً . وهذا الليل تربي تحت قدميه اعظم السفن هولاً وتقاد اليه اعلاها جسماً ونفامة . هكذا تكون العادات فان ما يظهر حقيراً فيها بالتجزئة تقاد اليه المامات الرقيقة والنفوس المالية

ولا بد من العوائد الانان لانها كما تعلم التجري الذي تسير فيه الاعمال والافكار والاحاسات ولا فرق بين ان كانت رديئة او سالحة لانها لا يبد من ان تعد بطياع الانان حتى تصير جزءاً منها او "طبيعة ثانية له" قيل ان رجلاً انكلزياً كان لا يشرب يدفء النار قريبة منه الا اذا وضعت في محل قديم تعود ان يدفأ فيه نحواً من ستين سنة . وقيل ان رجلاً قنسى في سجن الياسليل ردحاً من الزمان فبعد ان خرج منه طلب ان يرجع اليه ليقضي باقي عمره فيه لانه تخلف في السجن باخلاق لم يستطع تغييرها وهو خارجة

والشبان الذين اخاطبهم الان لا بد انهم يهتمون باتخاذ عوائد تنطبق على افكارهم واعمالهم وربما كان اكثرهم الان في جهاد متواصل في استعمال الاختيار والعقل لاتخاذ اسلم العوائد التي ينالون من ورائها السعادة والنعمة . اني لا استغرب انهم يذلون هذا المقدار من الاهتمام بهذا الامر الخطير ولكنني استغرب لان هذا الاهتمام لم يصل الى حده الواجب لانه ينبغي ان يكون عمل الحياة المستمر

افرض يا هذا انه قد ر عليك ان تختار نوعاً من الملابس لا تغيره مدى الحياة فكم من الفكر والتميز يلزمك لتنتقي ذلك اللبوس . ولو امر عامل ان يستعمل فأسا كل ايام حياته فاي حكمة وتمعن يلزماته لاتقاء تلك الناس . هذه المفروضات اقل خطراً من اتقاء العوائد النافعة فكما تريد ان تحمي جسمك بلبوس مريح مناسب مقبول اي ليس ضيقاً يمنع نمو الجسم ولا هو فوق ما يناسب احوالك ولا مستهجنات في ذوق العقلاء هكذا ينبغي ان تتروى بكاء العوائد التي تضمن لجسمك نمواً ولصحتك اعتدالاً ولتروتك ازدياداً ولا دابك ارتقاء وامتداداً . وكما ان الجسم يظهر بهائه واعنداله في الرداء المنتظم المريح هكذا جمال النفس وبهاؤها يظهران في العوائد السليمة الصالحة والسجيا الكريمة الفاضلة

ولا ارى من صعوبة في اقتباس العوائد الصالحة متى وجدت الرجولية الحقيقية والنبات الواجب "فن تعود البطالة من صفوه يقدر ان يمل عشر ساعات في النهار في حمل الحجر

اذا ابتداءً ذلك مجدِّ مع المثابرة والأ فكيف يقوم العامل اليومي بهذا العمل الشاق ان كان الامر غير ممكن . وما يقال في الامور المادية يقال في غيرها

ولا اريد ان اتبك ايها القارئ بان اذكر لك كثيراً من القوائد التي ارى الحاجة ماست اليها ولكنني اخص ما كان منبها هاماً للشبان والامل ان يكون منهم كثيرون ممن يقرأون باهتمام هذه الجمل البسيطة لاني قصدت ان اجعلها موجزة للغاية ومحدودة الالفاظ خالية من التعميق حرصاً على وقت القارئ ومع ذلك فربما لا تتمكن الآن ان اكتب الا في عادتين واول عادة اجعلها بيتاً لقصيد البحث هي هذه : —

عَيْن ما ينبغي ان تفعل في يومك . اعمل اليومي خطرة في سبيل حياة السعادة التي يقصدها عقلاء القوم ولا يوجد سبيل تحضوف بالمخاطر وملان بالمعائر نظير هذا السبيل . ولذا يحتاج السائرون فيه الى تمن تام وحكمة عظيمة وندبر جدير بمن يطرقون سبيلاً كهذا السائرون في النجود والسهول يحتاجون الى خريطة معينة موثوق بها تكون رائداً لهم ومرشداً لا يتجاوزون حدوده وبهذا المعنى يقال ان العامل او الساعي يحتاج في سعيه الى رائد يملن له اعمال يومه حتى يتدبرها

وحياة الانسان طالت او قصرت ينبغي ان توجه اعمالها الى غاية واحدة . والمرء الذي يسعى لغير غاية يهوي بنفسه الى سهاوي الضلال والجهالة ومثله كمثل سنية في الاوقيانوس لما قوة للسير ولكن لا وجهة لسيرها تلعب بها الرياح وتخبطها الامواج حيث شاءت . هكذا الانسان الذي يعمل كثيراً ويستفيد قليلاً — فهو كثير الكارات قليل البارات . فالى مثل هذا يقال خير له ان يعين غاية يسعى اليها وآمالاً يرقبها وهذا لا يتأتى الا بتعيين اعمال كل يوم على حدته من الناس من يخرج من بيته لغاية غير معروفة او على الاقل غير معينة فيمشي كثيراً ويرى اصحاباً كثيرين ويتكلم كثيراً وعندما يحاسب نفسه على فراشه يجد ما اقل ما افاد به او استفاد منه والسبب لانه لم يعين خروجه عملاً خاصاً وربما قضى اكثر وقته يتأمل في نوع الفائدة التي يفيها

كان رجل عالم اذا سأله عن مسألة يحتاج الى جوابها دقيقة اجابك " لا وقت لي للجواب لاني لم احسب لما حساباً قبل خروجي من بيتي " فلا غرابة ان صار لهذا العالم واساله المكان الاول بين البشرفا طبة لانهم يقدرون الحياة ويرتبون اعمالها فينتفعون او ينفعون بها . اما ما يظهر فنتنا من التقصير في هذا الامر فهو علة الخطاطنا وسبيلنا ان نهض الى اتخاذ هذا المبدأ لانه من اشرف وانفع مبادئ الحياة بل ان تعيين الاعمال اليومية مما يجهز القوى

العقيلة بفعل التنبه الى الشروع فيها بسهولة وبعطيها فرصة لزيادة الامعان وثبات العزم . قال احمد " لم اقدم على عمل من خمسين مما عملت بتدبير سابق ولكنني ندمت على كل عمل اكلمته بدون تدبير "

٢ اشغل وقتك بالعمل والجد ولا تتجاوزهُ الى آخر حتى ينتهي ﴿﴾

" الاجتهاد بين النجاح " حديث الفلحين في كل العصور . لم يقل " المواهب " او الفرص بين النجاح لانها قد تكون بيد الكسول كاللؤلؤة بيد الجاهل لا يعرف قيمتها ولا يحسن التصرف فيها . والاخبار يؤيد ان اكثر اصحاب المواهب العظيمة ليسوا اصحاب جد وامانة ولو استعملوا مواهبهم حسب هذا المبدأ لاستفاد العالم منهم فائدة تذكر ولكنهم كما يؤيد الاخبار يستعملون مواهبهم العظيمة كمكان يتوكلون عليه للراحة والتمول لا ليطرقوا به ابواب المجد والنجاح وبهذا تصير المواهب التي لهم كقطعة من الخديد تترك بلا استعمال الى ان تتأكسد في الهواء وتصدأ بفعل الطبيعة حتى تأكلها العوارض وتفتتها الايام

والاجتهاد لا يشترط فيه ان يصعب المواهب السامية لانه وحده كاف لئيل اسمى اغراض الحياة . وقد يجلب لاهله ما لا تحبهُ المواهب السامية بأمرها . والاجتهاد الذي اقصدهُ ليس من ستربات الطبيعة او من الامور غير الممكنة لان معناه ان يشغل الانسان فراغ وقته بعمل يتدبرهُ لئال من ورائه اتمام غاية حياته السامية ولذا فهو يسور لجميع الناس ينتج من ذلك انه لا عذر للضعفاء في نقصان آمالهم بالحياة زعماً منهم ان قواهم لا تكفي

لئيل تلك الآمال لان كنوز المجد والسعادة ترحب بكل مجتهد

فاذا وعد غني بجائزة من يقطع مسافة معلومة ورايت بين الاصحاء اعرج يجمع على بنفذه قاصداً قطع تلك المسافة علمت ان الغني لا يتأخر عن مكافأة هذا الرجل بنفس ما كانا يو غيره ولو وصل بعهده بزمان . بل ربما كافأ الاعرج اصناف ما يكافؤ به غيره . هذا عين ما يجده الذين يطرقون باب الآمال بيد الاجتهاد لا بيد المواهب ومساعدة الفرص . . . قال المثل الايطالي من يسر متهلاً يسر طويلاً وقال الشاعر

لاستهلن الصعب او ادرك المنى فما انتادت الآمال الا لصابير

نستغرب كثيراً حينما ترى او نسمع بعدد المجلدات الضخمة التي ألفها كتاب العصور الماضية . ولكن اذا علمنا ان سر تلك الاعمال هو استعمال الاوقات بالاجتهاد زال استغرابنا لان الحياة المشغولة بالاعمال تستطيع ان تملأ العالم من العوائد . وهذا عين ما امتاز به التجار بن مرحم الذي استعمل كل فرصة للعمل والفائدة فغير العالم روحياً وادبياً وغرس اصول الفضيلة واسب قواعد المدينة

بعض الشبان معرضون حينما يتدنون بعمل لان يظهروا جهداً فائتاً ولكنهم لا يلبثون ان يملوا ويميلوا الى قضاء وقت اطول مما يلزم في الراحة من عناء ذلك التعب . وفي هذا الطريق من الخطر ما لا يخفى
وغيرهم عرضة لان يجبوا العمل الجديد فيأتونه بكل القوة ثم يفتونهُ ويؤثرون الكسل على العمل به . هولاء لا يجنون شيئاً من انماهم . يزرعون كثيراً ولا يحصدون شيئاً . يقال ان الذي يمشي مستملاً كل قوته ثلاث ساعات كل يوم دار حول الكرة الارضية في سبع سنوات وذلك بفعل الاستمرار فاذا قضى عشر ساعات يدور حول الارض في نحو سنتين وهو زمن قليل في ذاته وكثيرٌ باعتبار الثابرة وعدم الاتعاط . هكذا يقدر من اراد ان يقطع اي فلاة من فلات المعارف والتقدم

المسود يؤثرن المثل الآتي على غيره من الامثال وهو ” المشي خير من الجري والوقوف خير من المشي والجلوس خير من الوقوف والنوم خير من الجلوس “ . وكان هذا المثل وحده علة لاحتياط الامة عموماً فلينبه القاري

ولا يخفى ان الله جعل للمرء عمراً محدوداً واعد له من الازل عملاً يناسب ذلك العمر ولذا يلوح لي ان من لا يستعمل كل وقت فاما الله يستعمل الله لانه اطال عمره بغير قصد واما انه يدل على تقصيره في اتمام ما قصد الله ان يتمه به ونظير هذا اسان لا يستطيع عند ما يبرح هذه الحياة ان يقول ” اكلت السعي ”

أكد احدكم لصاحبه في جواب له انه لم يمض عليه يوم لم يكتب فيه شيئاً من مؤلفات او يقرأ جانباً من المطولات وان هذا كان سبباً في رفعتي وداعياً لعلو شأنه . وقد قرأت الان عن رجل كان عظيم النفوذ بين قومه يدعي (روتزفورد) لم تكن له لذة الا في الاتهاب ولا سعادة الا في العمل كان يولي كل يوم خطاباً دينياً او موعظة ادية مكتبة ويصلح مقالات احدى الجرائد قبل الطبع ويزد المرضى ويفتقد بعض العائلات ويعلم في احدى الكليات ويقضي وقتاً مع بعض الشبان لحثهم على الاهتمام باعمال الحياة الخطيرة وفوق هذه الواجبات اليومية وجد بعد موته ان له من المؤلفات ما يزيد عن المائة مجلد في مواضع مختلفة حتى يخال للتأمل ان حياته كانت اقصر من ان تكفي لكتابة تلك المجلدات وكأنه لم يكن يعرف وقت للاكل والشرب والراحة والرياضة نظيرنا

وقد يظن كثيرون انه لا يجوز ان تنهك القوى دائماً بالعمل لان ذلك يحرم الانسان السعادة والحال ان العمل بعكس ذلك يقوي البنية الادبية والمادية ويلد للنفس ويهذب

الصفات ويرقى المدارك وان شئت فقل ان عدم العمل هو الذي يضعف القوى العقلية والجسدية .
فقد سأل مرة المركيز سبينولا السر هوراس لم مات اخوك فاجابه مات لعدم العمل يا سيدي
فقال ذلك نعم فان ذلك كافٍ لتتل العلم والفضيلة باسرها . وقد قالت الاتراك في امثالها " الرجل
العامل يحارب شيطان واحد اما الكسلان فيعاربه ألف " وقال المثل الاسباني " العامل
يجربه الشيطان اما الكسلان فيجرب الشيطان " . فكم تكون حياتك ايها الشاب العزيز سعيدة
اذا شغلت وقتك بالعمل

ويوجد مانع عظيم يؤخر نجاح المشتغلين ويذهب بانعابهم ادراج الرياح وهو سرعة التنقل
من عمل الى آخر قبل ان يجزى . فقد يشغلون كل اوقاتهم بالعمل ومع ذلك فتركهم الاعمال
كالامثال الغير الناضجة فيجعل لهم زرعاً كثيراً متعباً بلا حصاد مفرح . فالبعض يقرأون او
يسمعون سيرة رجل عظيم فتأخذهم الغيرة الطبيعية ويرتاحون الى محبة الاقتداء بالصفات الجليلة
التي كانت سرّاً لتجاهه فيؤثرونها على غيرها الى حين ولكن اذا ما انكشفت لديهم صعوباتها
هجرها ولازموا طريقاً آخر . قال احدهم " اعرف رجلاً سمع عن عالم كتب على يابه ببني
الزائر ان يشترك مع اهل البيت في اعمالهم فكتب هو ايضاً ذلك على يابه بحروف واضحة وانكب
زمناً على اعماله اليدوية وبعد قليل سمع بعضاً يتحدثون مؤلفات العالم بلاخستون فزى
المصنوعات التي في يده غير كاملة واخذ يقرأ مؤلفات ذلك العلامة وبعد ان سرّبها في البداءة
ورأى متاعب المطالعة سمع رجلاً يقول ان المرء يستفيد من المحادثة أكثر من المطالعة (وهي
حقيقة مشكوك فيها عند العقلاء) فترك مطالعته وابتدأ يجول من بيت الى آخر ومن صاحب
الى آخر ليلتقط المعارف الزعوم نيلها بهذه الصورة وهكذا سار كل حياته عطشاً والماء تحت
رجليه . فرجل كهذا قلما تستفيد منه الهيئة الاجتماعية

الرجل الذي يتدبر العمل بحكمة هو الذي يبداء بجهد معتدل واهتمام عظيم ويتقدم فيه
حتى يجزه واذا حالت صحائب الصعوبات دونه تهب نسمات الثبات والشهامة الحارة فتشع
تلك السمب ويظهر بعدها جوّ المعالي والآمال صافياً رائقاً . اما الرجل الذي يبدأ بعمل ولا
تحمه ويؤجل عمل اليوم الى غدوه والذي يقضي وقتاً في التأمل فيها ببني ان يفعل اولاً فهو
رجل قليل التدبير عدم الامام بقيمة الوقت الثمين واعمال الحياة الخطيرة فيحتاج ان يورد نفسه
هذه العادة الثمينة التي كانت سرّاً لتجاح كثيرين وفتاحة خير عظيم على العالمين وسبباً في تعظيم
الحياة وهي ان يشغل وقتك بعمل ولا يتجاوزوه الى آخر حتى يتتهي